الأسس المعرفية لإنجاز فكر اقتصادي عربي جديد
(رؤية منهجية)

د .جاسم الفارس: رئيس وحدة الدراسات الاقتصادية والتنمية

بغية تأسيس مدرسة اقتصادية عربية جديدة يحتاج الى وعي بجملة من القضايا المعرفية التي يمكن ان نوجزها بالاتي:

أولاً- **الفلسفة**:

رغم إن الفلسفة مشترك إنساني، إلا إن لها خصوصيتها في إطار النسق الحضاري للحضارات الإنسانية، فحضارة اليونان غير حضارة الصين وهذه غير حضارة الهند.. إن الفلسفة في إطار النسق الحضاري العربي الإسلامي ينبغي أن تكون فلسفة عقلانية يصنعها عقل منبثق من النص المؤسس للحضارة العربية الإسلامية ألا وهو القرآن الحكيم، وعليه أرى إن الفلسفة التي تؤسس لنهضة فكر اقتصادي جديد ينبغي أن تتسم بما يأتي:

- **التوحيد:** ليس بوصفه (فكرة) تعين على فهم العالم، بعيداً عن قضايا الذات والصفات، إنما بوصفه (عملية) تعيد تنظيم العالم، وتعيد بناءه من خلال التمسك بمعطياته الأساسية، وحدة العالم، ووحدة الحقيقة، في ضوء تنظيم الوحي للوجود الإنساني. ومن خلال هذا المنظور نتابع آلية بناء الفكر الاقتصادي والمقولات الاقتصادية والمفاهيم التي تبنى في ظله.
- **العدل:** هو الأساس الفلسفي الثاني في الفلسفة المنشودة في حق الإنسان ودوره الحضاري، الذي يشكل (التكليف) أهم متضمناتها. أننا نرى أن التكليف المطلوب إدراكه في ضوء علم التوحيد هو التكليف العملي بأبعاده التنموية الشاملة، لأن مقولة التكليف تجد نفسها فاعلة في مقولة "عمارة الأرض" التي هي التعبير الإسلامي عن تنمية العالم وبنائه.
- **العقل:** وهو العنصر الثالث في الفلسفة المنشودة لتأسيس فكر اقتصادي عربي جديد. ذلك أن العقل في جدليته مع الوحي والوجود يؤسس لإبداع دائم في البناء والتغيير .

ثانياً- **المنهج**:

تنبع ضرورة المنهج من الموجبات الآتية:

- **تعدد الواقع الإنساني وتشابكه**، الأمر الذي يؤدي إلى تداخل العوامل المؤثرة فيه والمكونة له. حسن المنهج ودقة استخدامه يسهل أمر البحث عن الحقيقة والوصول إليها من أقرب الأبواب.
- **تعقد الواقع وتشابكه**، يفرض ضرورة تحقيق التكافؤ ما بين المنهج، والظاهرة قيد البحث. بحيث يكون المنهج مناسباً لفهم الظاهرة دون اصطناع لها أو اجتزاء منها، وهذا أمر تضبطه القواعد المنهجية.
- ألمنهج ليس وسيلة محايدة في تناول الموضوعات ودراستها، إنما هو إطار ينقل من الواقع ما يتناسب معه ويكون على مقاسه ويدخل في تكوينه الداخلي.

المنهج هو الشرط الضروري لبناء الفكر. لأنه المنظم لعملية التفكير، ودقته بغية الوصول إلى النتائج الدقيقة لعملية البحث والتأسيس. يمتلك المنهج صفة الإطلاق، لأنه روح العلوم. وهو المشترك الإنساني في الحضارات كافة. وعند فحص الإنتاج الحضاري للإنسانية جمعاء، نرى أن المناهج قد أثرت كثيراً في نمط تفكيرها. فكان المنهج هو الوسيلة التي أعادت به صياغة نماذجه المعرفية. نرى هذا واضحاً في الحضارة العربية، عندما ترجمت الفلسفة اليونانية في عصر المؤمنون خاصة، تمكن علماء الأصول والكلام والفلاسفة من استيعاب تلك المعارف وأخضعوها لمنهجهم الفكري، فولدت علوماً جديدة مثل علم الكلام، ومفاهيمي ومفاهيمه في الكون والإنسان، وظهر عندها مفهوم الانفصال والاتصال في دراسة الكون، وغير ذلك. يقودنا المنهج إلى الاهتمام بالكيف؛ كيف نؤسس فكراً جديداً؟ كيف نبني مفاهيم جديدة؟ كيف نفسر الواقع؟ كيف نبني نظريات التنمية؟ وهكذا؟ والمنهج هو الذي يعطي للعلوم صفاتها، ويحدد جوهرها، فبدون المنهج لا يمكن التمييز بين علم الاقتصاد والنظم الاقتصادية، فلكل منهجه الذي يضبط آلية العمل والحركة.

إن بناء فكر اقتصادي يستوعب اللحظة التاريخية للأمة يستوجب ما يلي:

1- تحديد الإطار المرجعي للنموذج المعرفي الاقتصادي والإطار المرجعي لبناء الفكر هو الرؤية الفلسفية في إطار النسق الحضاري للأمة العربية.

2- بيان مصادر المعرفة التي تنظم آلية التفكير.. ومصادر المعرفة هي إما إسلامية أو غير إسلامية. فنظرية المعرفة الإسلامية.. تعتمد الوحي والوجود والعقل، في حين يغيب الوحي عن مصادر المعرفة غير الإسلامية.
3- في ضوء تحديد المصادر المعرفية، تتحدد المفاهيم والدلالات في إطار اللغة التي تستمد دقتها من دقة العلاقة بين مناسبة اللفظ ومعناه.
4- تحديد آليات، تحليل مفردات النظام الاقتصادي. (الأسرة والمؤسسة والقطاع العام وسياسات الدولة العامة والفرعية).
5- تحديد الثوابت والمتغيرات في النشاط الاقتصادي من خلال وعي العقيدة والواقع ومستلزمات التقدم وآليات البناء.
6- إعادة فهم العلاقة بين الفكر الاقتصادي العربي الجديد، وبين علوم العصر، وفلسفته.
7- تأسيس علاقة متينة بين الفكر والقيم، فالاقتصاد الغربي لم يهتم بهذه العلاقة، رغم محاولات رولز وأمارتيا سن في التركيز على قيمة العدالة والأخلاق في النشاط الاقتصادي.
8- إن القرآن الحكيم يؤكد على وحدة الاقتصاد والأخلاق في إطار مفهوم الاستخلاف.

ان منهجية القرآن الحكيم المعرفية تستهدف صياغة العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية بما يحقق وعي العالم واستثماره استثماراً كفوءً وتحقيق سعادة الإنسان وخلاصه من الأساطير اللاهوتية التي انحرفت بالأديان عن أهدافها السامية.

ينطلق البحث من الإيمان بالوحدة البنائية للقرآن الحكيم ودقه نسقه المعرفي الذي يؤدي إلى:

1- انبثاق المفاهيم العلمية من القرآن الكريم متضافرة مع بعضها
2- صياغة القوانين التي تعمل في العلوم بكفاءة
3- دقة المنهج الذي يحكم العلوم الاجتماعية والتطبيقية
4- دقة النتائج المترتبة على هذه العلوم

لقد أسس القرآن الحكيم قواعد العلوم ومناهجها وأهدافها بجعل العلم نشاطاً انسانياً هادفاً، قوي الدوافع، رفيع القيم، ودقيق التنظيم، يتميز بأسلوبه في البحث، هدفه التوصل

إلى معرفة القوانين والعلاقات والأسباب والحقيقة بوصفها أشياء غير مرئية وعلى أساس إسلوب الملاحظة للأشياء والأحداث والعمليات.

وعلم الاقتصاد الإسلامي هو العلم الاجتماعي الذي يهدف إلى آليات فهم الإنسان والعالم وتفسيرها والعمل على تغييرها وإعادة بنائها على وفق الهدى القرآني بغية تحقيق سعادة الإنسان والأمة في الدارين.

وبغية إعادة بناء الهيكل العام للاقتصاد الإسلامي في ضوء القرآن الحكيم ينبغي استيعاب النسق القرآني الذي يهدي إلى الأفضل في الحياة بعلومها وعناصرها كافة.

تبدأ عملية بناء علم الاقتصاد الإسلامي في ضوء القرآن الحكيم انطلاقا من التوحيد فهو الأساس الذي تقوم عليه حياة الإنسان المسلم المؤمن والأسرة والمجتمع وبيان تجلياته العلمية والعملية في مستويي التوحيد؛ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

وسيتولى البحث توضيح تجليات التوحيد في الاقتصاد الإسلامي...

ينبثق من التوحيد بغية تحقيق كفاءة النشاط الاقتصادي، بناء الإنسان الموحد لأنه بدون هذا الإنسان يفقد النشاط الاقتصادي كثيرا من أهميته.

في هذا المبحث سيتولى البحث تحليل مفهوم التزكية وأثرها في بناء الإنسان الاقتصادي المؤمن بعد ذلك ينتقل البحث لتناول المبادئ الإنسانية العملية المؤسسة لعمارة الأرض في ضوء التوحيد وهي:

1- مبدأ التسخير وأثره في النشاط الاقتصادي.
2- مبدأ الاستخلاف وأثره في النشاط الاقتصادي.
3- مبدأ عمارة الأرض.

عندها ستحكم النشاط الاقتصادي ومؤسساته القائمة على التوحيد، منظومة قيمية هي:

الأخوة، الحرية، الرحمة، العدالة، والحكمة...

تعين هذه المنظومة القيمية على تحقيق مقاصد الشريعة وهي:

حفظ الانسان و الدين والاقتصاد.

يحقق الانسجام بين التوحيد والأخلاق والمقاصد، الكفاءة للاقتصاد الإسلامي في فروعه المتعددة التنموية والنقدية والمالية، وسياساته الاقتصادية المتعددة، فيسهم في علاج واقع الأمة الاقتصادي والإسهام في حل مشاكل العالم الاقتصادية.

ثالثا- البعد المفاهيمي:

تلعب المفاهيم الدور الاساس في تحديد بنية العلوم وتميزها من حيث هي خلاصة لفلسفة الامة ولغتها وبالتالي خصوصيتها الحضارية. وإن من أولى مهمات نظرية العلم تحديد المفاهيم التي هي المقدمة الضرورية في تحديد تصورات العقل للعلم والممارسة العلمية والمعرفة والماهية.

إن المفهوم هو نتاج وعي العقل بالوجود والوحي في وحدتهما وجدلهما كذلك، وتعد المفاهيم الضوابط المهمة في تنسيق العلم والمعرفة وترتيب الافكار، إن بناء المفاهيم التي تؤسس لنهضة فكرية معاصرة هو الدليل العلمي والعملي عن عمق تفكير الامة الفلسفي، وهو الضرورة لتأسيس فكر اقتصادي جديد يساهم في نهضة الامة .

رابعاً- البعد التطبيقي: ويتمثل في الاتي:

1- فهم المعطيات الفكرية للمدارس الاقتصادية القديمة في الحضارات الانسانية؛ أي يجب أن يكون لدينا معرفة عميقة بالنظريات الاقتصادية التقليدية والمعاصرة، بما في ذلك الاقتصاد الكلاسيكي و الكينزي، والنيوليبرالي، واقتصاد المعرفة. هذا الجهد يساعد على تحديد نقاط القوة والضعف في النماذج الحالية.
2- وعي أسس الابتكار والإبداع: يجب أن نمتلك القدرة على التفكير خارج المتداول، وتقديم حلول جديدة للمشكلات الاقتصادية. الابتكار يمكن أن يكون في السياسات الاقتصادية، الأدوات المالية، أو حتى في طرق التفكير الاقتصادي.
3- الاستدامة: يجب أن نركز على وعي التنمية البشرية والاقتصادية المستدامة في إطار معطياتها التاريخية والمعاصرة، لأن الاقتصاد يأخذ في الاعتبار تأثيراته في البيئة والمجتمع، ويسعى لتحقيق توازن بين النمو الاقتصادي وحماية الموارد الطبيعية.

4- وعي التكنولوجيا والمعرفة: إذ في عصر اقتصاد المعرفة، يجب أن تكون التكنولوجيا والمعرفة جزءاً أساسياً من الفكر الاقتصادي الجديد. هذا يشمل استخدام التكنولوجيا لتحسين الإنتاجية والكفاءة، وكذلك الاستثمار في التعليم والبحث والتطوير.
5- الشمولية والعدالة: يجب أن يكون الفكر الجديد شاملاً ويأخذ في الاعتبار جميع فئات المجتمع. يجب أن يسعى لتحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية، وتقليل الفجوات بين الأغنياء والفقراء.
6- التفاعل مع التغيرات العالمية: يجب أن يكون الفكر الجديد مرناً وقادراً على التكيف مع التغيرات العالمية مثل العولمة، التغير المناخي، والتطور التكنولوجي، وتشكيل موقف حضاري من هذه القضايا .
7- التعاون الدولي: يجب أن يشجع الفكر الجديد على التعاون الدولي والتكامل الاقتصادي بين الدول. هذا يمكن أن يساعد في تحقيق نمو اقتصادي مستدام وشامل على مستوى العالم.
8- التعليم والتوعية: يجب أن يكون هناك تركيز على التعليم والتوعية الاقتصادية. فهم الاقتصاد يجب أن يكون متاحاً للجميع، وليس فقط للخبراء والمتخصصين.

إن استيعاب الوحدة المنهجية للقران الكريم يعين العلماء على اكتشافات جديدة في حركة المجتمعات، لضبط المتغيرات الاجتماعية الناتجة عن حركة التاريخ وصيرورتها الحضارية. يمدنا القرآن الحكيم بالقدرة على بناء المفاهيم الجديدة والقوانين التي تفسر وتغير وتعيد بناء الظاهرة الاقتصادية، ذلك أنه كما نكتشف في الأرض والفضاء الكوني نظريات جديدة تحكم تطور واختلاف مناهج وسبل معارفنا، كذلك فإن تطور مناهج النظر للقرآن الحكيم من تحليل واستدراك لوحدته المنهجية العضوية، يمكن أن يعطي منظورات جديدة. فالقرآن يماثل الكون، كلما تغيرت مناهج البحث فيه، نكتشف مكنونات جديدة.

في إطار حركة التقدم التي يؤكد عليها القرآن الكريم فان النص القرآني الثابت يضم أشكالا مختلفة للوعي به، ولكل معطى علمي متميز، يؤسس لعلوم الكون والمجتمع المتعددة، إذ لم يعد لأسباب النزول الواردة في كتب الواقدي قادرة على العيش في العصر الحالي، ذلك أن القرآن الحكيم يتكشف اليوم عن مضامين علمية جديدة في معالجة احتياجات العصر على مستوى الإنسان والمجتمع والعالم.